

الثورة الجزائرية ومكاسبها الباقية

د. محمد العربي ولد خليفة

1 - الذكرى و العبرة (❖):

تحيي الجزائر الذكرى الخامسة والأربعين لثورة التحرير، وهي تعبر من النقاهاة إلى الشفاء، بعد "النوبة" الخطيرة التي ألت بها وأوشكت على تمزيق جوامع الوطنية العريقة، وأوصلت الدولة والمجتمع إلى حالة قصوى من الانكفاء و الانفراط، وأوهمت البعض من فصائل النخبة بأنها هي الفرقة الوحيدة الناجية وما سواها إما كفر وإما انحراف و ظلامية، وأودت إلى "تخندق" وطوفان من الدمار و اللعان الشامل .

لعلكم أيها السادة تشاركونني الرأي في انه لا فائدة من الذكرى بلا عبرة، فالتاريخ - أي تاريخ - ليس مستودعا لتخزين ما فات، إنه سجل مفتوح يحمل تجربة الأمة وخبرة الأجيال، بما فيها من نجاحات و إخفاقات، تساعد المفكر والسياسي على فهم معطيات الحاضر، و بناء رؤية مستقبلية انطلاقا من الخلاصات الباقية بعد الأشخاص والعهود، وهذا ما يسمى بالاستحضار و الاستبصار (feed back insight).

لا يسمح المقام هنا بعد مقارنة مستفيضة بين ما عنته الجزائر في هذا العقد الرهيب، و بين ما كانت عليه في مستهل الخمسينات من قهر وهوان، وما وصلت إليه فصائل الحركة الوطنية من تشرذم

و دوران في الفراغ، دفع بعض التيارات إلى اليأس، و جعلها لا ترى في الجزائر سوى مقبرة مترامية الأطراف، لا تجيب الداعي، و لا تستجيب للنداء، و أوهم تيارات أخرى بأنّ مسخرة المطالبة القانونية (légaliste) هي العزاء الوحيد المتبقي، بينما قبلت تيارات ثالثة بوضعية الذباب والبراغيث التي تدور حول فتات الكولونيالية و تتسابق في إظهار الولاء للجبايرة المجرمين بالتتصل من شعبها و الاشتراك في قمعه.

أما التيار الأصلي والأصيل فهو الذي خرج من موجة الأعماق، من السلالة الوفية لتقاليد الشهامة والمقاومة والكفاح ضد جحافل الغزاة الممتدة على عدة آلاف من السنين كانوا فتية أقلية في العدد (أغليبيتهم دون العقد الثالث من العمر) ولكنهم كانوا الأقوى بالتصميم و الإرادة و الثقة في شعبهم لم يتسرب إلى قلوبهم الشك والتردد، و لم تمنعهم ندرة السلاح و المؤونة، وحالة الانسحاق التي كان عليها شعبنا من اقتحام المخاطر، فقد كانوا على يقين بأن الإرادة هي التي تخلق وسائل العمل الثوري، أما الوسائل وحدها بلا إرادة فإنها نوع من البذخ قد لا تجدي شيئاً.

قرر أولئك الفتية رواد الحرية الأوائل، الخروج من دورة الفراغ والشرعية الوهمية و نفذ البراغيث والذباب وإحاقه بالعدو، فليس بين الشعب الجزائري وعدوه الحقيقي وهو الكولونيالية الفرنسية

الحاقدة الإجرامية أي طرف ثالث، أو قوة وسطية "لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء" إن الهدف واضح و محل إجماع عند كل الجزائريين الذين فقدوا كل شيء و هم في وطنهم أغراب، تداس حقوقهم الأولية و كرامتهم الشخصية آلاف المرات كل يوم.

الهدف هو انجاز الحرية مهما كانت التضحيات، و إستعادة الدولة الجزائرية التي استأصلها العدو و عمل على قطع جذورها، و كل ما يذكر بكيانها في ذلك اليوم المشؤوم من جويلية 1830، لذلك قرر رواد الثورة الإحتكام إلى الشعب الجزائري الذي لم تعترف أغلبيّته الساحقة بأية شرعية للإحتلال الكولونيالي، و سجلوا في خاتمة البيان التاريخي جملة كان لها ما بعدها من عظائم الأمور:

"أما نحن العازمون على مواصلة الكفاح

الواقون من مشاعرك المناهضة للإمبريالية

فإننا نقدّم للوطن ما نملك"

إذا طبقنا هنا مدخل الاسترجاع - الاستبصار الذي أشرنا إليه فيما سبق، فإننا سنجد في البيان الأول لثورة التحرير خلاصة متقدّمة جدا من الناحيتين النظرية و العملية، لما كان عليه الحال بعد حوادث 8 ماي 1945، و حتى خريف 1954، فقد كانت حالة

النخبة في تلك المرحلة التاريخية تتوزع بين تيارات الشك و الوهم و الردّة و الانقسام و الزعامة الكاريزماتية و القبول بالخدمة التي كان يقوم بها لفيف الأتباع (suplètifs) الذين تستخدمهم الكولونيالية الفرنسية الشريرة لتبييض وجهها البشع مقابل "برنوس" العار و المساعدة على التسلط و حراسة "الأهالي" و الوشاية بالمتمردين على "المتربول".

نقول أن بيان نوفمبر هو خلاصة متقدمة تضمنت التشخيص الدقيق والعلاج الحقيقي للوضع المأساوية التي وصلتها الجزائر بعد حوادث ماي 1945 إذا وضعناها في سياقها التاريخي المحلي والجهوي، ولكنها خلاصة متقدمة و على درجة كبيرة من الأهمية إذا قارناها بمقارنات حركات التحرير العالمي المعاصرة لها في منتصف هذا القرن.

تدفعنا المعاناة السابقة إلى القول بأن النخبة الثورية الجزائرية خرجت حقيقة من صلب الشعب الجزائري طاهرة نقيّة من "فيروسات" فرنسا الكولونيالية، و كانت على وعي عميق بمعاناة وآماله وطموحاته، فقد جمعت في صفوفها أناسا بسطاء، ولكنهم يتميزون بقوة الإرادة و الذكاء، وعلى علم بالتحوّلات التي طرأت على المنطقة و العالم بعد الحرب العالمية الثانية، ومن الإنصاف أن نقول أن وصف النخبة الثورية بالبساطة لا يعني الجهل و الغفلة

فقراءة بيان الأول من نوفمبر، والتمعن في الإستراتيجية العامة للثورة، تثبت أنها كانت على مستوى عال من الثقافة السياسية، وذلك على العكس تماما مما تروّجه بعض التحاليل السياسية المغرضة أو المتسرعة والتبسيطية (simplistes) وتتهم التيار الثوري في الحركة الوطنية (النجم، حزب الشعب، الانتصار، اللجنة الثورية للوحدة والعمل، المنظمة الخاصة والثورة نفسها) بالشعوبية (populisme) الطوباوية (utopisme) و الرومانسية واللاواقعية، (romantisme idealisme) إلخ...

يبدو لنا أن ما يحزن الحاقدين من نوستالجي الكولونيالية وخدمهم من لفيف المرتزقة أن القيادة الأولى للثورة أعادت اكتشاف مصدر قوة شعبنا وهو جوامع الوطنية (patriotisme) الجزائرية المتمثلة في ذلك المزيغ القادر على التعبئة و التوحيد، و هو مزيغ متماسك من الإسلام النضالي والعمق الحضاري العربي الأمازيغي و مطلب الحرية و العدالة الاجتماعية و الطموح نحو التقدم.

لا تقبل غالبية الجزائريين عنصرا من ذلك المزيغ الصافي إلا ضمن الكل فهو أشبه بجذور الشجرة التي تغذي الأغصان والأزهار وبدونها مجتمعة لا تكون فيها أزهار وثمار، فإذا حدث خلاف ذلك فإنه ينذر بموضعية شاذة و مصطنعة مآلها الزوال.

2 - بين ماضي الحرية والوفاء و ماضي الغزو والإدعاء:

إذا اقتربنا الآن من ملحمة ثورة التحرير فإننا سنجد السنوات السبع والنصف العظام ما بين 1954 و 1960 و علينا أن نقرأ صلابة شعبنا و معاناته في كل يوم من أيامها التي تناهز 2700 يوما، حتى جويلية 1962، كل يوم هو في حد ذاته سفر من التضحية و المعاناة و الفداء، لأبد من تبليغه كاملا غير منقوص للأجيال الناشئة، كيف تمكن أجدادنا من استرجاع الوطن بعد أن سرقته منهم جحافل من المغول والتتار الجدد في القرن التاسع عشر؟ و أن نسمي جهرا اللصوص الجبناء، و هم قادة وساسة فرنسا الكولونيالية المدنيين و العسكريون بمباركة كثير من رجالات الفكر والفن والعلم، و بتحريض من رجال الصحافة الذين صفقوا للجرائم النكراء، دون خجل أو حياء، متتاسين العقلانية و مبادئ عصر الأنوار وشعارات الجمهورية التي أسفرت عنها ثورة البورجوازية على الإقطاع الذي غير المكان فقد ،فانتقل من سهول ليتوسع في حوالي مليونين ونصف مليون كيلومتر مربع، ليس للفرنسيين فيها لا ملك ولا ميراث، لأنها ملك الشعب الجزائري وحده الذي آلى على نفسه أن لا يفرط في "يوطا " واحدة من "أرضه الجغرافية و التاريخية والوجدانية " منذ غزو الرومان قبل ثلاثة و عشرين قرن إلى اليوم(بول بالطا 1992).

لا يمكن اعتبار مواقف أولئك الناس "رجال الفكر والإعلام" دفاعا عن الوطن فرنسا، بل هي مواقف شوفينية متعصبة ومنحازة إلى الظلم، فقد كان من الواضح أن الجزائريين كانوا في حالة دفاع عن النفس، ومن بين القوانين المعمول بها في فرنسا نفسها، أن الذي لا يسعف ولا يجد الشخص المهدد بالقتل يعتبر شريكا في الجريمة !.

ليس حبا في الجدل والمحاجه التأكيد على أن الجزائر هي المرجعية النظرية والعلمية لمبادئ الحرية والعدالة في عهدها النوميدي والإسلامية الوسيطة و العثمانية الحديثة ودولة عبد القادر الوطنية، أي الشعب آخر في العالم القديم والمعاصر جعل الحرية اسما له اعتبارها هويته وجنسيته الجماعية غير الامازيغ(الأحرار) وأي شعب كافح آلاف السنين بلا انقطاع من اجل الحرية والمساواة والعدالة، قبل أن يتبنى الرسالة المحمدية، وبعد أن تبناها، وحمل مشعلها الروحي والثقافي المتمثل في التوحيد والمبادئ الثلاثة السابقة إلى أوروبا، وأعماق إفريقيا، بمنأى عن العسكرية العدوانية، والتعصب والاستعلاء العرقي والحضاري، على الرغم من أن الجزائر كانت ضمن موكب المقدمة في القيادة الحضارية أو الحداثة كما تسمى اليوم مقابل الغرب اللاتيني المسيحي في ظلمات التخلف و الخوف من التقدم (حادثة الساعة التي أهداها هارون الرشيد إلى شلمان و اعتبرها هذا الملك وحاشيته من فعل

الشیطان). تحتنا شیم شعبنا تقالیده الحضاریة والامازیغیة العربیة الإسلامیة على مقابلة الإساءة بالإحسان و العفو ما أمكن ذلك، إلا إذا تعلق الأمر بالأرض - (تراب الجزائر، أمنا الحنون) - و العرض - (هویة الوطن و تراثه النضالی) - لذلك ینبغی أن یعرف شبابنا الذی اغتالت فرنسا أرضه واستحلت عرضه آلاف المرات بدرجة من الحقد والشراسة قلما عرفها تاریخ البرابرة المتوحشین فی عصر الكهوف، یجب أن یعرف شبابنا عددا من الحقائق عن فرنسا الواقعیة التي كانت صغیرة جدا فی أوروبا ومنتفخة ومستأسدة على لبلدان المسالمة، من بین تلك الحقائق نذكر بإيجاز ما يلي :

1 - لم یكن لفرنسا أي كیان متمیز طیلة العصر القدیم و الوسیط حتی بمقاییس تلك العهود، فلیس هناك خلاف بین المؤرخین على أن ما یسمى فرنسا كان مجموعات من القبائل المتوحشة (الغول Gaules) إكتسحتهم قبائل متوحشة أخرى تسمى الفرانك (Franks) من أصول جرمانیة وقد بقی هذا الخلیط الغولی الجرمانی یبحث عن كیانه التاریخی المجهول إلى غایة القرن الماضي عندما اختلق المؤرخون السیاسیون شخصیة خیالیة هی "فیرسانجیتوریكس"❖❖ وقدموها على أساسا أنها البطل القومي للغول .

2 - نتيجة لانعدام الجذور التاريخية، ابتلعت الإمبراطورية الرومانية الغول وغرق سكانها في الأقيانوس اللاتيني، ولم يظهروا أية مقاومة تذكر للهيمنة الرومانية في عهدها الوثني أ في عهدها المسيحي بل أضافوا ملصقة جديدة لماضيهم المجهول ليصبحوا الغول الرومانيون المسيحيون.

أما النوميديون أمازيغ الجزائر فقد حافظوا على هويتهم الوطنية لم تبتلعهم رما اللاتينية ولم تترك فيهم أي أثر يذكر كما خاب أمل الامازيغ في مسيحية روما وبيزنطة بعد أن استخدمها القياصرة لأغراض التوسع والاستعباد ولذلك لم يبق للمسيحية "دين الجلادين" بعد سبعة قرون لا آثار ولا مآثر في هذه البلاد .

3 -عانت فرنسا من عقدة : الفراغ" التاريخي وانعدام المعالم الضرورية لانسجام المجتمع وشرعية الدولة، سواء نظرت إلى نفسها في مرآة ماضيها، أو قارنت نفسها بالأمم العريقة حتى بقيت إلى ليوم الدولة أكثر مركزية في غرب وجنوب أوروبا، وكأنها تخشى العودة إلى عهد القبائل الغولي المتوحشة، وهو ما يفسر أيضا انفعالاتها الحماسية المتعلقة باللغة والثقافة الفرنسية وكأنها تخاف أن يكرر التاريخ نفسه فتبتلعها الهيمنة الأمريكية Pax-America اليوم مثلما ابتلعها الهيمنة اللاتينية الرومانية (Pax-Romana) بالأمس.

4 - قام السادسة الفرنسيون وطابورهم من العملاء وخبراء التزييف بالترويج لسلسلة من الأكاذيب بديباجة علمية تحت عناوين توهم الأبرياء بأنها نتائج صحيحة، بل اكتشافات باهرة في علوم الإنسانية والمجتمع والطبيعة الجزائرية نأخذ ذلك الركام من المسلمات الخاطئة والمفاهيم اللاعلمية عناوين كثيرة تغذت منها الايديولوجية الكولونيالية مثل: "الانديجينوفيليا، و"إثنوغرافيا" الأعراق في الجزائر القديمة والحديثة، وإثنولوجيا الثقافات والألسن و الأديان، من عهد البطش و الاستبداد الروماني إلى عهد الاحتلال الفرنسي، عهد الاستئصال والظلام كما سماه "توكفيل" في منتصف القرن الماضي، (Tocqueville,ed.1988).

5 - يبدو لنا أنه من مضيعة الوقت والجهد أن يهتم العلماء والباحثون الجزائريون بدراسة النفايات السامة للإيديولوجية الكولونيالية البادئة، لأن الدراسة العلمية النزيهة ستؤدي حتما إلى البرهنة على أن الكذب هو كذب، وأن المغالطة في مغالطة، ولا شيء غير ذلك. لا شك أن الكولونيالية الشريرة خلفت في مجتمعنا حقلا واسعا من الألغام غير المرئية بالعين المجردة تتفجر بين الحين والآخر بتحريكها عن بعد لتشوه صورة الجزائر عن نفسه وعلاقته بمجتمعه وماضيه الحضاري و بمشروعه الحقيقي للدولة الوطنية الحديثة، كما أحيיתה ثورة نوفمبر 1954.

إن الساسة و الخبراء الفرنسيين لا يزالون إلى اليوم يعولون على حقل الألغام الذي طوقوا به الجزائر وهو ما يفسر الحجم الهائل من المنشورات ومراكز البحث و التلاعب بالأرشييف الخاص بما قبل الاحتلال وما بعده، فرنسا هي البلد الوحيد الذي يسمح لنفسه بالتعليق والحكم على كل ما يحدث في الجزائر وكأنه معلم يحتفظ بسجل يضع فيه التقييط و الملاحظات حول سيرة تلميذ في المدرسة الابتدائية ،وهو ما لا تفعله حتى مع ما تسميه مستعمراتها السابقة أو أراضي ما وراء البحار !.

6 - إن تفكيك حقل الألغام المبتوثة منذ أكثر من قرن ونصف وإبطال تأثيرها على صورة الجزائر عن أنفسهم ،وعن دولتهم ومجتمعهم ماضيا وحاضرا ، تبدأ بلا شك بالتركيز على التاريخ الجزائر السياسي والاجتماعي و الثقافي ، ولكنها ينبغي أن لا تتوقف عند ذلك إذ من المفيد ان يهتم علماءنا المختصون بالتاريخ السياسي لفرنسا في محيطها الأوربي قبل ثورة 1789وبعدها، ومتابعة خطواتها المتعثرة لبناء الدولة وتوحيد أمة انقسمت على نفسها لمدة تزيد على قرن ونصف إلى فرنسا الملكية وفرنسا الجمهورية أو ما يعرف بشقي فرنسا المتعاديين (Les deux frances enemies وكان طريقها المفضل للوحدة هو شن الحروب على جيرانها وخارج حدودها واستعمال العدو الخارجي كذريعة لحل مشاكلها الداخلية.

من المفارقات الجديرة بالتأمل أنه في الوقت الذي أعيدت فرنسا إلى حجمها الحقيقي في المجال الأوروبي بعد انهيار أحلام بونابارت (1815) وعودة فرنسا إلى ما قبل ثورة (1789) (عودة الملكية 1815- 1848 La Restauration وبعد سنتين من الهجوم الفادر على قلعة بين مزغنة (1832) تأسست الدولة الوطنية الجزائرية بقيادة رجل من الشعب، لم يسبق له أن تولى أية وظيفة رسمية بعد انتخاب حر واستشارة شعبية واسعة، وليس عن طريق الانقلابات والحروب الخارجية أو الأهلية.

سبق هذا لقائد المغوار كل معاصرة في المنطقة في تطبيق مبادئ النظام الجمهورية المتمثلة في بناء دولة تقوم على القانون و العدل والنظام والاستشارة الشعبية حتى من زمن الحرب الشاملة في مواجهة وطمس معالمها واستئصال هويتها، وينبغي أن نلاحظ أمن كلمة أمير المكسرة لعبد القادر تعني في الحقيقة القائد أو المسؤول الأول أو رئيس دولة ولا علاقة لها بالرتب الوراثية والألقاب التشريفية المتداولة في البلدان ذات لتقاليد الملكية والسلطانية، فلو كان كذلك لما إحتاج إلى إجراء الانتخابات العامة عدة مرات (البيعة في مصطلح ذلك العصر).

ليس الهدف من الإشارات السابقة المقارنة بين التاريخ السياسي للجزائر وفرنسا فالجزائر ببساطة لم تكن أبدا دولة معتدية على

احد من جيرانها ، ولم يثبت انه كانت لها نوايا توسعية في أي عهد من العهود ، غير أن الإنصاف والدقة في المفاهيم تتطلب أن لا يقبل علماءنا المختصون وضعية المتهم بلا بينة ولا جرم ، حتى أن بعض مفكرينا يتسابقون عن حسن نية لإثبات أن الجزائر هوية حضارية عريقة ودولة واضحة الحديد والمعالم وشعب غيور صابر وشجاع وهذا في الحقيقة جزء من حقل الألغام الذي زرعه الإيديولوجية الكولونيالية التي أسقطت عقدها التاريخية على الجزائر ، فهي التي نقضت العهود وخرقت الاتفاقيات التي عقدتها مع رئيس الدولة الجزائرية وقائدها عبد القادر (معاهدة ديميشل سنة 1834 ومعاهدة تافنة 1837) بينما لم يسمح الأمير أبدا بخرق أي بند من المعاهدتين المذكورتين بل إنه كان ينزل أقصى العقاب على المتهورين ولم يكن ذلك عن خوف أو ضعف فقد كان يتصرف كرجل دولة يحترم الالتزامات القانونية لدولته.

3 - إنكار الثورة والتستر على الحرب:

ماذا يسمى الساسة والمؤرخون الفرنسيون حرب 1914- 1918 ضد ألمانيا إن المصطلح المكرس بالإجماع هو حرب الحق (Guerre de droit) وماذا يسمون حرب 1940 - 1945.

إنهم يسمونها الإجماع أيضا حرب التحرير من الفاشية (Guerre delibération contre le Fachisme)، غير أن الحرب فيها فرنسا أكثر من مليون من الجنود وكلاب المخابرات و"الحركة" و أسطول من الطائرات الحربية المؤيدة من الحلف الأطلسي بالذخيرة والعباد إنها تعتبر، نفاقا وخداعا، عمليات تهدئة "وحرب الجزائر" وأحداث متفرقة (Événement) لا تستحق الذكر.

لماذا أنفقت فرنسا ملايين الفرنكات في حربها القذرة وأوشكت على الخراب الاقتصادي والإفلاس؟ ولماذا طوقت الجزائر شرقا وغربا بالأسلاك المكهربة وحقول الألغام والكاشفات الإلكترونية (رادار)؟ هل كانت تخشى من الريح؟ أم أنها كانت تخشى رجالا ونساءً أمام الخطوط المكهربة ووراءها طلبوا الموت فوهبت لهم الحياة، أنهم أبطال جيش التحرير الوطني الذين تربوا في أحضان أمهات حفظن تراث شعب لا يسجد إلا لله، عاشق متميم بالحرية ولقنهم آباؤهم الصبر والشجاعة والإباء، إنهم صورة طبق الأصل لأجدادهم الشجعان، في التل والصحراء، والهضاب العليا وقمم الجبال السماء.

طوال تلك الفترة الحالكة كان الكثير من الأحزاب الفرنسية المتأرجحة بين اليمين واليسار، اشتراكيين من شاكلة "غي موليه" ومن جمهوريي اليمين بألوانه المتطرفة والأقل تطرفا وعسكريين

يجرون أذيال الهزيمة في معركة " ديان بيان فو " الفاصلة والمهيمنة لإمبراطورية أفل نجمها في انتظار أن يطفئ تحت تأثير نتائج ثورة الجزائر، الجميع يبحث عن الأعذار لتبرير سياسة الأرض المحروقة، واستعمال الأسلحة الفتاكة المحرمة في الحروب الكلاسيكية فضلا عن عمليات التهدة المزعومة! فيدال - ناكي: هكذا تتلاحق الجرائم (P.Vidal- NAQUET : 1992).

حاولوا إقحام حرب التحرير الوطنية في أتون الحرب الباردة وقالوا إن الشيوعية العالمية هي التي تغذيها فعلى العالم "الحر" أن يؤيد فرنسا ويلقي بثقله لمواجهة الطوفان الأحمر، لم يصدق أحد هذا الدجل والبهتان، وعندئذ وجدوا ضالتهم في الناصرية أو ما سموه المأوى المغذي والمحرض ((Foyer extérieur يعني القاهرة فاعتدوا على مصر جمال عبد الناصر مع عميد الكولونيالية الثعلب البريطاني وصنيعتهما إسرائيل: الظاهرة الكولونيالية الشاذة في المنطقة والقائمة على العنصرية التلمودية الابتزاز الصهيوني، ولكن الثورة الجزائرية خرجت من رحم الشعب وتعاطف معها الأحرار وفي مقدمتهم مصر جمال عبد الناصر، لج، لاكوتير: المأوى الخارجي .[J.LACOUTURE : le foyer extérieur 1992 .

اختطف فرنسا نخبة من قيادي الثورة في أشهر عملية قرصنة جوية في النصف الثاني من هذا القرن واستشهد قادة كبار على رأس

الولايات التاريخية وعدة مرات ولكن الثورة إستمرت واتسعت أبعادها وترسخت مؤسساتها وازدادت تصميمها على النصر.

فرض العجز والخيبة على فرنسا استعمال الخدعة والتضليل فعرضت على قيادة الثورة "سلم الأبطال" أي حفظ ماء الوجه لدولة الطغيان ولكن "ديغول" ومستشاريه في قصر الإليزيه توقعوا في حسابات مغلوطة أن في الجزائر "ماريشال بيتان" يبحث عن "فيشييه" في مكان - ما - من جنوب الجزائر أو شمالها، (H.ROUSSOU: 1987 leSyn, Drome de Vichy) لقد كان التوقع أضغاث أحلام أمام تصميم الشعب وقيادته على النصر أو الاستشهاد، (روسو، فيشي أعراض المرض 87، س.كارنوف: التمزق والثورة 92)(S.Karnow). لقد جمعت فرنسا الكولونيالية بين اللؤم والطمع فقد حاولت منذ القديم فصل الصحراء، واختراع ممالك وعروش من التبن والكرتون، لاحتكار منابع النفط، ونحويل جزء من أرض الجزائر إلى مخبر للتجارب النووية والجرثومية، مقلدة في ذلك الإمبراطورية العجوز بريطانيا التي رسمت خريطة منابع النفط على هواها، وبثت الفرقة والشقاق وخرجت من الباب في تمثيلات مسرحية، لتعود أكثر سطوة ونفوذا مع العم سام الذي يقود الجوقة ويحفظ لها حصتها من الغنائم.

انهارت كل تلك المطامع والمناورات وحقت الثورة أهدافها الثلاثة الرئيسية وهي:

- 1- التحرير الكامل لكل التراب الوطني بحدود التاريخية
- 2- ترسيخ الوحدة الوطنية التي صمدت أمام كل المؤامرات.
- 3 - إعادة بناء الدولة الوطنية واسمها الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، دينها الإسلام ولغتها الوطنية هي العربية وتوجهها المبدئي هو من الشعب وإلى الشعب، وهي مطالب التي ناضلت من أجلها الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري منذ فجر الحركة الوطنية، ولن يتخلى عنها شعبنا أبدا.

4 - من خصائص الثورة الجزائرية:

باستثناء الخونة وعملاء الكولونيالية المغرر بهم، ليس للثورة والدولة الجزائرية حساب تصفية مع أحد، فالثورة الجزائرية هي أساسا ثورة إنسانية كما جاء في بيانها الأول التأسيسي بيان الأول نوفمبر 1954: إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية، احترام جميع الحريات دون تمييز عرقي أو ديني "وتمسكت بطبيعتها الإنسانية في ظروف حرب شاملة وتدميرية، ولذلك التفت حولها الشعب بكل فئاته وكان الشعب هو حامي المجاهدين وعينهم الساهرة على تحركات العدو،

كما كانت تعامل أسرى الحرب حسب القوانين الدولية وزيادة، حتى اختيار بعضهم الانضمام طوعا إلى صفوفها، لهذا السبب فشلت كل المحاولات لتقزيم الثورة وتحويلها إلى حرب أهلية داخل الولايات التاريخية، أو بين تلك الولايات، فقد حدث تمازج وتعارف وتضامن بين الجزائريين لم تعرفه بلادنا طيلة ليل الكولونيالية الكتيب فلا ننسى أن إدارة الاحتلال كانت تمنع التنقل بين المقاطعات وحتى بين القرى إلا برخصة وحثت على العدا والتنافر بين سكان مختلف جهات الوطن.

أثناء حرب التحرير، كانت وحدات جيش التحرير في الداخل وعلى الحدود تتشكل من أبناء شرق البلاد وغربها وجنوبها ووسطها دون تمييز، بل أن قيادات من الشرق تحملت مسؤوليات كبرى في الغرب والعكس أيضا صحيح، كما كانت البعثة الخارجية ثم الحكومة المؤقتة، ومجلس الثورة قبلهما، صورة معبرة عن الوحدة الوطنية، بل إنه من النادر أن يسأل شباب الثورة بعضهم بعضا السؤال التالي: " أنت من أين جئت؟ " إذا صعب التعرف على شخص من اللهجة.

على الرغم من سيل الأكاذيب وحملات التشويه فإن الثورة الجزائرية لم تكن حربا بين الطوائف والأديان والمذاهب (إسلام، مسيحية، مالكية، حنفية، أباضية)، ولا بين الأعراق، ولا بين

الطبقات الاجتماعية، ولا بين إيديولوجيات معلّبة وجاهزة للتصدير مثل الماركسيات بكل ألوانها، والاشتراكيات من السان سيمونيه حتى الفابية والديمقراطيات المسيحية أو اللائكية.

قلد كان مرجع الثورة الإيديولوجي هو التجربة التاريخية للشعب الجزائري وتراثه النضالي والثقافي العريق.

ينبغي أن لا يفهم شبابنا مما سبق أن الثورة ورجالها وهياكلها المختلفة كانت مجمعا من الملائكة المعصومين عن أخطاء التقدير والهفوات فهم قبل كل شيء بشر، لهم عواطف وميول يفرحون ويحزنون يكرهون ويفرون ينتابهم الخوف والقلق، ويتلهفون على يوم النصر، إن الحالات السابقة مشاعر ومواقف طبيعية، عدم حدوثها هو الغير طبيعي، لكم ينبغي إن تنظر إليها الفتية على ضوء الاعتبار التالية:

أ - وضع أحداث الثورة في سياقها التاريخي الاجتماعي السياسي فلا ينبغي أن ننسى ما كانت عليه الجزائر قبل 1954 من انسحاق وقهر، حتى إن عددا من القياديين في النخبة فكروا في كل سبل الخلاص إلا الثورة المسلحة، بل استمر البعض في تسميتها مغامرة، لا مخرج منها ولا طائل من ورائها، قياسا على الانتفاضات التي أغرقتها فرنسا في برك من الدماء.

ب - إن إطارات جبهة التحرير الوطني طبقوا بصرامة مبدأ الاعتماد على النفس أوى، وليس عيباً ولا استنقاصاً من عزيمة وذكاء أولئك الرجال والنساء من الطليعة المجاهدة، إذا قلنا بأن أغليبيتهم الساحقة لم تكن على دراية وتحكم سابق في التكنولوجيا، تمكنهم من إتقان التنظيم والتخطيط والتكتيك والإستراتيجية السياسية العسكرية، لقد كان كل زادهم الخبرة المكتسبة من الانتفاضات السابقة والحركة الوطنية وما يفرضه عليهم الميدان من قرارات فورية لحل المضلات اليومية في مواجهة العدو.

ج - لم ترث الثورة حكومة ولو شكلية كما هو الحال عند جيراننا في تونس والمغرب وليبيا، ولذلك قلنا في بداية هذه الورقة بأن أكبر كارثة حاقت بالجزائر هي استئصال الدولة الجزائرية ومحو كل مؤسستها ورموزها في السنوات العشر الأولى التي أعقبت الاحتلال من الناحية العسكرية لم يكن بالجزائر ضباط لهيئة الأركان قبل (1954) ومن انضم إليها م الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية وحرب الفيتنام كانوا إما مجرد جنود بسطاء أو ضباط في ميدان القتال.

د - إن القول بأن ثورة نوفمبر هي ثورة شعبية، ليس مجرد وصف لغوي أو حماسي ديماغوجي فحتى 1956 - (مؤتمر الصومام، الهيكلية التنظيمية وبناء المؤسسات الثورية، تجنيد المتعلمين القليلين في المدارس والأقل في الجامعات) - كان 99% من إطارات الثورة

المدنية والعسكرية، هم الرجال والنساء الذين أقصتهم الكولونالية من الحياة المدنية وكثير منهم أمضى سنوات في السجون والمعتقلات، أو متخفيا، أو معتصما بالجبال وأقاصي الصحراء، مثل هؤلاء الرجال كانوا يبدعون ويبتكرون الحلول في كل لحظة، وليست لديهم معرفة نظرية سابقة بفنون القتال والتنظيم، تعلموها في الأكاديميات العلمية، ومراكز الدراسات الإستراتيجية ودورات هيئات الأركان. هـ ليس من الإنصاف والموضوعية العلمية، أن يقتصر المعلقون والمحللون على الأخطاء وتهويل إشكاليات بعضها من صنع أجهزة الحرب النفسية الكولونالية، فالثورة في كل القواميس هي حالة استثنائية للغاية، وليست وضعية عادية للجدل وتبادل التحية والشكليات التشريفية، إن حدوث اجتهدات خاطئة محتمل جدا(وهو أمر يحدث في دول كبرى إلى اليوم وفي الحروب الكلاسيكية)، ولو قارنا ثورة المصقلة(الفرنسية)، والحرب الأهلية الإسبانية، والبولوشية، الصينية إلخ...سنعرف الفرق الشاسع بين الرعب وانهار الدماء التي خلفتها تلك الثورات نتيجة القتل والتصفيات المتبادلة وبين ثورة الجزائر، الأقرب إلى المثالية. و -على الرغم من أهوال الحرب ومعاناة لشعب من القهر والاضطهاد، فإن الثورة الجزائرية لم تكن ثورة "حزينة"، فقد استطاع جنود جيش التحرير ومناضلو جبهة التحرير التاريخية في

كثير من المواقف المساوية تحويل إلى نكتة وفكاهة من صميم التراث الجزائري، وقد بقيت في ذاكرة الكثير من القادة والمناضلين البسطاء طرائف وقصص للضحك وليس البكاء، فيها كثير من المفارقات العجيبة والواقعية، مما يدل على البساطة والعفوية، ننتظر أن يتتبع أدباؤنا (وخاصة المعنيون بأدب الأطفال) إلى أن لثورة فن أصيل خاص بالتسلية و الترويح ليته يجمع يوما - ما - وينتقل إلى الشاشة الكبيرة و الصغيرة و المسرح.

5 - الثورة مشروع ونظرية

استخلص شعبنا من تجربة الحركة الوطنية نظرية للتحرير ومنهجية للعمل الثوري، قامت على هدف مركزي التفت حوله كل الإرادات الوطنية، تمثل ذلك الهدف المركزي في استعادة الحرية والشروع بسرعة في بناء الدولة الوطنية، التي دمرتها جحافل الغزاة، في ذلك اليوم المشؤوم من جويلية 1830.

نجد معالم نظرية التحرير، وقواعد المنهج الثوري في البيان التأسيسي، بيان الأول من نوفمبر 1954، الذي هو في الحقيقة خلاصة مكثفة، نظرية وعملية لنتائج التجربة التاريخية للشعب الجزائري، بعد أكثر من قرن وثلث من الكفاح المتواصل، وتشخيص نقدي لأسباب القوة والصمود وعوامل الضعف والخلل،

وخطّة إجرائيّة لإنقاذ الجزائر من وضعيّة لا تطاق، أوصلت شعبنا إلى حافة الهلاك.

لذلك فإن العناية بتراثنا النضالي ينبغي أن تقترن أولاً باستحضار المبادئ (النظرية العامة للتحرير) والمنهجية التي وضعها النص المؤسس، وهو بيان الفاتح من نوفمبر 1954، باعتباره واحدة من الخلاصات الأكثر نضجا وتطورا في مسيرة شعبنا، وتجربته التاريخية.

وينبغي ثانيا أن يكون محطة دائمة ومتجددة لتأمل الملحمة الكبرى التي خاضها شعبنا أثناء ثورة التحرير، وحملت الملامح الأساسية والخطوط العريضة لمشروع مجتمع يتجذر في هويته الحضارية وخصوصياته الوطنية ويبني بلا عقد ولا تعقيد دولة حرة عادلة وديمقراطية يفتخر مواطنوها بخدمتها والانتساب إليها، وهذا في رأينا هو القطيعة الأولى والحقيقية مع عهد ونظام، كان شرا كله، ستعبد شعبنا وحطم كيانه التاريخي والمؤسساتي، وأوصل مجتمعا إلى آخر معاقلة الدفاعية، وخطط بكثير من الدهاء والمكر للتوالد والاستمرار من الداخل.

عند الربط بين البيان التأسيسي في الأول من نوفمبر 1954 وتذكر الوضعية المزرية وحالة الانسحاق التي كان عليها شعبنا وبين

الملحمة التاريخية للتحرر والتحرير التي أسفرت عن هزيمة واحدة من أعتى القوى الاستعمارية، فإنه من الممكن التعرف بسرعة على مكاسب الجزائر ووضع اتفاقيات إيفيان في سياقها التاريخي، باعتبارها تتويجا مشرفا لنضالات استمرت عشرات السنين وآمال وطموحات، لم يتخل عنه شعبنا أبدا، وكان لجيل نوفمبر شرف إنجازها.

لا بد قبل الإشارة إلى جانب من المكاسب المادية والمعنوية للنصر العظيم الذي حققه شعبنا في مارس 1962 من الإلحاح على أن صانع ذلك النصر هو الشعب الجزائري وفي طبيعته شهادتنا الأبرار الذين لا يسبقهم إلى المجد والتضحية أحد من الأحياء ولا يقترب من مرتبتهم العليا إلا أولئك الذين أوفوا بعهدهم ومنعتهم الذكرى والعبرة من الإنسياق وراء الإغراء والغرور، وعملوا بلا هوادة لكي لا تقع الجزائر مرة أخرى في فاجعة 1830 المريعة، ويتعرض شعبها للإبادة والإذلال.

هناك دوافع كثيرة للتشكيك في مصدر ذلك النصر المؤزر وقيمته التاريخية بعضها بريء يحكم على الأحداث خارج سياقها التاريخي ومعطياتها المحلية والجهوية والدولية وبعضها مدغول يبحث عن فضائل للنظام الكولونيالي ورموزه الشريرة عن طريق نشر العدمية (Nihilisme) والتشكيك في تضحيات شعبنا وتقزيم ثورته وإنكار

منجزاته، والإدعاء مثلا أن استقلال الجزائر هو هدية مجانية من الرئيس الفرنسي الأسبق الجنرال ديغول وتغيب عدد من الوقائع والحقائق، هي الآن من قبيل البديهيّات لا يمكن إنكارها نذكر منها:

1/ إن قوة ولبيب الثورة الجزائرية هو الذي أوصل ديغول إلى الحكم بطريقة قريبة جدا من الانقلاب وأن الغرض من إعادة هذا الزعيم العسكري والسياسي هو إنقاذ فرنسا من انعكاسات الثورة الجزائرية داخل فرنسا نفسها وعلى الساحة الدولية، حيث تضاءلت مكانتها واكتشف العالم وحتى شرائح من الرأي العام الفرنسي بشعة الأعمال الإجرامية التي اقترفتها تحت اسم التهذئة (Pacification) والتمدين.

2/ عرف الشعب الجزائري أثناء العهد الديغولي، واحدة من أقسى وأشرس مراحل الكفاح، فقد أصبح الوعد الذي جاء به إلى السلطة وهو القضاء على جيش التحرير الوطني هدفا له أواوية مطلقة، جندت له فرنسا كل ترسانتها العسكرية والبشرية والاقتصادية، بالإضافة إلى تسخير الإمكانيات الضخمة للحلف الأطلسي.

3/ في ذلك العهد الديغولي المظلم واجهت الثورة العمليات الكبرى للتمشيط والتطويق والعزل عن العالم الخارجي عن طريق سدود من الأسلاك المكهربة وحقول الألغام والقصف بأسلحة محرمة، مثل النابالم والفسفور والأرض المحروقة والمحتشدات والمعتقلات واستعمال التراب الوطني وسكانه في أقصى الجنوب لإجراء التجارب النووية والكيميائية، بهدف إرهاب الجزائريين وتخويفهم من قوة فرنسا.

4/ إن اتفاقية إيفيان وثيقة تاريخية، تسجل من جهة اعتراف العدو بانتصار الثورة، وتحقيق من جهة أخرى النظرية والمنهج الذي سطره بيان أول نوفمبر 1954 وبرنامج الصومام الذي أكد بأن الثورة ليست عملا معزولا ولا هي حربا عنصرية أو دينية بل إن الحرب هي وسيلة ضرورية في مواجهة حاسمة بين شعب يكافح لتقرير مصيره، والنجاة من مخالب عدو أنكر وجوده، وسلط عليه كل أنواع القمع والتحقير والطغيان، وبهذا المعنى فإن الحرب قد فرضت على الشعب الجزائري ولم تكن أبدا هدفا في حد ذاته.

5/ لقد أصرت قيادة الثورة منذ بداية المفاوضات، وفي دورتها المتعاقبة، على التمسك بالحقوق الثابتة والمشروعة لشعبنا، وهي استعادة الاستقلال والسيادة الوطنية ووحدة الشعب والتراب الوطني، وهي المبادئ التي نص عليها بيان الأول من نوفمبر، فلا

سيادة ولا استقلال بدون إقليم واضح المعالم والحدود وشعب يتمسك بوحدته الوطنية في كل الظروف ودولة تجسد وحدة الإقليم والشعب وتعمل على انسجام المجتمع وتطوره وتنمية ثرواته المادية وموارده البشرية.

6/ يمكن القول إذن بأن انتصار الثورة الجزائرية لم يكن منحة ولا هدية لا من شخص، ولا من هيئة خارجية، بل لعله من الموضوعية والإنصاف التأكيد على أن ذلك الانتصار قد ساهم في إخراج فرنسا من حالة الاستنزاف والفوضى، وساعدها على العبور إلى حالة نقاهة، وأعاد لها بعض ما فقدته من مكانة ومصادقية على الأقل في العالمين العربي والإفريقي خلال المراحل اللاحقة للجمهورية الخامسة، وعلى هذا الأساس، فإن عدو الأمس مدين للجزائر وليس العكس، نقول عدو الأمس لأن شعبنا الذي يجمع بين التسامح والشهامة لا يحقد على الشعوب، ولكنه لا ينسى ما تكبده من جروح وآلام وحملات إبادة منظمة من طرف قيادات سياسية وعسكرية، كانت في أغلب الأحيان تعمل ضمن إستراتيجية واحدة، هي التسلط على الجزائريين واستغلالهم بأبشع الطرق وحرمانهم من أبسط حقوقهم البشرية وإلحاق الجزائر نهائيا بالتراب الفرنسي، وفي قبضة الأقلية الأوروبية المتغترسة من ذوي القلوب والأحذية السوداء، وفي العلاقات الدولية والممارسة

السياسية ليس هناك عدو ولا صديق دائم إن الذي يحدد طبيعة العلاقات هو المصالح والتوازنات (Raport de force) ويل لمن ينسى ذلك!

6 - الثورة ومكاسبها الباقية :

يمكن من الملاحظات التوضيحية السابقة التذكير ببعض المكاسب المعنوية والمادية التي حققتها ملحمة نوفمبر الكبرى وأوصلت شعبنا إلى الانتصار الكامل على الكولونيالية الإجرامية من بين مكاسب ملحمة نوفمبر نذكر بإيجاز ما يلي. أولاً: نجحت ثورة التحرير في تحقيق أول توحيد سياسي اجتماعي واسع النطاق جمع الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري ونخبة وأغلبها من الشباب، الأكثر إحساساً بالمعاناة القاسية التي طال أمدها تولت تلك القيادات مهام قيادية في سن مبكرة وبرهنت في الميدان على كفاءات عالية وإخلاص جعلها تضحي بالنفس وبما زاد على الكفاف، ولا أقول النفيس فلم يكن لديها من النفس شيئاً يذكر.

ينبغي التأكيد على أن التوحيد (unification) لا يعني الأحادية (monolithisme) لا في مستوى القيادة في مستوى التنظيم الثوري الذي أخذ اسم جبهة وليس حزباً.

ثانيا :أسفر ذلك التوحيد السياسي الاجتماعي حول خطة وأهداف البيان التأسيسي للثورة في الأول من نوفمبر 1954 عن مكسب لا يقدر بثمن، وهو تأكيد وحدة وطنية ترابية أعطت الجزائر حدودا واضحة ونهائية، اشترك في التضحية من أجلها كل المواطنين من إطارات وجنود جيش التحرير الوطني، والفدائيين والمسلمين ومختلف الفئات الشعبية من العمال والطلبة والفلاحين والمعتقلين من داخل الزنانات وقافلة من رجال الدبلوماسية و الكتاب و الشعراء

...

ثالثا :لكي ندرك أهمية وأبعاد ذلك المكسب، ينبغي التذكير ببعض عناصر الإستراتيجية الشيطانية لفرنسا الكولونيالية القائمة على تقطيع أوصال الجزائر، وتقسيمها إلى شمال موزع بدوره إلى إقطاعيات أو مستثمرات يستغلها الكولون تحت الحراسة المشددة لقوات الاحتلال واللفيف المتعاون معها من القوم والحركة المرتزقة، وجنوب تحت الحكم العسكري تمهيدا لفصله تماما عن الشمال وفد حاولت فرنسا اقتراف هذه الجريمة آخر لحظة ،حتى قبيل التوقيع على اتفاقيات ايفيان فضلا عن الألغام التي زرعتها في الشمال والجنوب معا وتتعلق كلها في خلق تناقضات مصطنعة بين السكان وإثارة النزاعات العرقية القائمة على أوهام مثل الادعاء بان البربر يختلفون من الناحية التكوينية (Génétique) عن العرب وهم أقرب إلى لمسيحية وفرنسا وان هناك

كراهية وحقدًا وراثيًا بين من تسميهم العرب بين الامازيغ. رابعا : تمكنت الثورة من إبطال مفعول كثير من تلك الألغام ،وقد تبين للجميع أن الجزائر ليست فسيفساء (Mosaique) من الأعراق المتناحرة والمتربصة بعضها ببعض ، فقد جاهد في الأوراس إطارات وجنود ومسؤولون سياسيون من الونشريس وجرجرة ، والعكس أيضا صحيح ، وتكونت فيالق الولاية الثانية والرابعة والخامسة وكتائب وهيئة الأركان من قيادات ومناضلين وجنود جاؤوا من مختلف مناطق البلاد ، ولم يتساءل أحد من أين جاء رجال من أعلى طراز في مستوى الشهداء ، مصطفى بن بولعيد ، زيفوت يوسف ، محمد العربي بن مهيدي ، لطفي ، عميروش ، بوصوف ، أو بومدين ، وكل منهم تحمل مسؤوليات قيادية في منطقة وفي جهات أخرى من الجزائر وعلى المستوى الوطني ، وفي يوم النصر التقى جنود جيش التحرير وناضلوه بأحضان ، لا يسأل أحد عن عرق أوجهة ، ولاشك أن هذا السلوك التلقائي يمثل الشكل الأرقى للوعي الجماعي بالوحدة الوطنية.

خامسا : إن أعظم إنجاز تحقق في يوم النصر ، هو الميلاد الجديد للدولة الوطنية ، واستعادة سيادة غيبها الاحتلال ظلما وعدوانا ، بعد أن أثبتت وجودها كعضو نشيط وفعال على الساحة الدولية ولعدة قرون ، وخاصة بعد أن برهن الأسطول الجزائري على سطوته في المتوسط وأعالي البحار والمحيطات ابتداء من القرن السادس عشر.

الجزائر هي البلد الوحيد في المنطقة إذا استثنينا فلسطين سنة 1948 (أي 118 سنة من بعد) الذي دمر الاحتلال مؤسساته المركزية، وكل ما يرمز إلى كيانه المتميز، وسيادته الوطنية، إما بالتخريب الحاد وإما بنقلها إلى فرنسا، واعتبارها جزءا من غنائم الحرب، ولذلك لا نجد اليوم أي داخل الجزائر لوثائق ومعالم، على درجة كبيرة من الأهمية مثل المعاهدات والمبادلات الدبلوماسية، التي حدثت قبل 1830 بين بلادنا وأطراف أخرى، على امتداد العالم مثل القوس اللاتيني (فرنسا -إيطاليا- اسبانيا -البرتغال)وشمال أوروبا وألمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة وروسيا القيصرية، وهي أهم دول العالم في ذلك العهد.

سادسا : إن الدولة الجزائرية هي البنت البكر للثورة الكبرى، لا يتقدم على هذا النسب الوثيق أية صفة أخرى، ولذلك كان من الطبيعي أن تكون جمهورية ديمقراطية شعبية (أو اجتماعية) كما نص على ذلك بيان أول نوفمبر 1954 التأسيسي .

يحق لكل الجزائريين وعلى مر الأجيال الفخر و الاعتزاز بإعادة تأسيس دولتهم ومن الواجب عليهم حمايتها والغيرة على سيادتها والدفاع عن حقهم في اختيار النظام الجمهوري الذي يتلاءم مع ذاكرة تاريخية لتراث حضاري عريق وكفاح مرير كلف شعبنا

قوافل من الضحايا والشهداء تقدر بالملايين، من المقاومة إلى ثورة التحرير الكبرى.

وينبغي كذلك أن نؤكد أن الذاكرة التاريخية تقوم على التواصل والاتصال بين مختلف مراحل الحركة التاريخية (Dynamique) الشبيهة بأمواج البحر تتلاحق بلا انقطاع ويؤثر كل منها فيما يليه ويتأثر بما قبله، إن انتصار الثورة هو تنويع لكفاح أجدادنا في نوميديا وأميرالات الاسطول الجزائري وزمالة الأمير عبد القادر وبوعمامة و المقراني وفاطمة نسومر إلخ... وأبطال جيش التحرير ومناضلي الجبهة وقياداتها السياسية العسكرية. كما ينبغي علينا إعلاء صورة الجزائر، وإعتبار شهدائها وقادتها المخلصين مجاهدين أو مفكرين جزءا من تراثها وأمجادها، فالنقد و التقييم لا يعني شتم الذات و تحقير الوطن ، فقد استغل البعض ظروف الفوضى وأطلقوا أحكاما سطحية غير مؤسسة وقالوا باستخفاف في استجابات استعراضية من نوع (Show Biz) إن الأمير عبد القادر خائن أو درويش وان المقراني ليس أكثر من باشا آغا "منرفز" يدافع عن امتيازاته الشخصية ، وأن عددا من أبطال الثورة وشهدائها العظام كانوا في الحقيقة يتقاتلون فيما بينهم، يصفون حسابات قديمة وموروثة من الحركة الوطنية إلخ...

خلاصة عامة :

ينبغي أن نؤكد في كل مرة بأن ثورة نوفمبر الكبرى ليست بداية من الصفر، وهي لا تنتهي بيوم النصر، إنها خلاصة متطورة لتجربة تاريخية عريضة، لقد ربح شعبنا الجولة الأولى ضد أعدائه ومضطهديه المباشرين ولكن التحديات السابقة تعود بين الحين والحين لتهدد مكاسب الانتصار العظيم.

المحافظة على مكاسب الانتصار لا يتوقف عند وصفه بالكلمات الضخمة، إنما بالدفاع عنه وتدعيمه، وإعداد أجيالنا الصاعدة لمواجهة تحديات العصر في عالم لا يرحم الضعفاء والضعف يبدأ دائما بانحلال التضامن الوطني وانتشار أشكال الفتنة، والتكرار للقيم الوطنية والأنانية وقصر النظر التي تدفع لدعوة الأجنبي للتدخل لمساندة هذا الطرف أو ذاك.

نحن في حاجة إلى ابتكار بيداغوجية علمية وفنية (تقنية) تتجاوز التضخيم العاطفي غير المقنع، والسرد الجاف المنفر للخلاصات الأساسية للثورة ومضامينها، استعمال تلك البيداغوجية لتقديم الأحداث والشخصيات والرموز في صورة جذابة ومستوى رفيع، يجمع بين البساطة والتشويق والفعالية، يتوجه إلى عامة الناس لتربية الحس التاريخي ويثير انتباه أطفالنا وشبابنا بوجه خاص، لا

تتقصد الكفاءات والتقنيات، إن الذي يعطل وأحياناً يشبط هو التواكل والارتجال وسوء التنظيم و التنسيق.

ولا شك أن المجهودات الكبيرة التي تقوم بها الهياكل المختصة سوف تعطي في المدى المتوسط ثمارها، ويأتي في مقدمة تلك الثمار نشر الثقافة التاريخية في أوساط الناشئة وداخل المنظومة التربوية وخارجها، وتعبئة جهود الباحثين والمختصين لإنجاز مقارنة عامة للمقاومة والحركة الوطنية وثورة التحرير الكبرى، يطرح أهم القضايا والخلاصات الأساسية لنضالات شعبنا تمهيدا لمقاربات أخرى أكثر تخصصا، ولدراسة التطورات التي حدثت في مجالنا الجيوسياسي وتقييمها من موقعنا، وعلى ضوء المشروع الدائم للتحرير، الذي بدأت ثورة نوفمبر العتيدة.

من الأنصاف، أن نقيم نتائج التحرير بالمقارنة بما حققته حركات التحرير الوطني الأخرى، وأن نضع ثورتنا في سياقها التاريخي، الداخلي والجهوي والدولي، وأن نعترف مسبقا، بأن لكل حركة تحريرية، أو ثورة، أرضيتها الثقافية والاجتماعية، واشكالياتها النوعية، ووضعها الجيوسياسية، ولذلك فليست لدينا أية نية للانتقاص من تضحيات شعوب تعاطفنا مع كفاحها منذ البداية. إذا أخذنا بعين الاعتبار كل تلك العوامل فإننا نجد الثورة الجزائرية نموذجا يقترب من الكمال بالمقارنة مع كل حركات التحرير

والثورات الأخرى، بالنظر إلى النصر المؤزر الذي حققته، وبالنظر إلى صداها وتأثيرها في محيطها القريب و البعيد، فقد تمكنت من إعادة تأسيس الدولة الوطنية، على أنقاض الهمجية الكولونيالية في إطار وحدة التراب الوطني والأمة الجزائرية، بدون أن تخضع لوصاية إيديولوجية أجنبية أو تتحول إلى ساحة للحرب الباردة بين المعسكرين المتنافسين على مناطق النفوذ.

نحن نردد في ناسبات كثيرة حقيقة لا ريب فيها وهي التاريخ ذاكرة الشعوب" وأن شعبا بلا تاريخ هو شعب بلا ذاكرة" ولكن علينا أن لا ننسى النتيجة الناجمة عن تلك الحقيقة وهي أن في ماضينا ذكرى وعبرة لأولي الألباب، فإذا كان التاريخ لا يتكرر أبدا بنفس الأحداث والفاعلين، فإن صانعه في كل الحالات هو الإنسان بأفعاله وردود أفعاله، وبالتالي فإن التاريخ يتغير في سياقاته ولكنه ثابت في جوهره ورهاناته الكبرى ومن أهمها تحقيق حصانة الأمة وأمنها واستقرارها وهي الشروط الأولية لضمان الهيبة و السطوة على المستويين الإقليمي و الدولي.

الهوامش

(❖) ورقة قدّمت يوم 31 أكتوبر 1999 أمام القيادة والطلبة الضباط في الأكاديمية العسكرية بشرشال

❖ تعرف موسوعة الأعلام "لاروس" فرسا نجيتوريكس(Vercingètorig) على النحو التالي: "قائد و زعيم غولي ولد ارفين (les Ervines) حوالي سنة (72 - 46 ق م) تزعم تحالفا من شعوب الغول ضد قيصر روما دافع بنجاح عن جرجوفيا و لكن جيش القيصر اعتقله، و قد فشل الغول في تحريره واستسلم و تم نقله إلى روما حيث أعدم بعد ست سنوات من السجن، واعتبر ذلك من انتصارات يوليوس قيصر".

(dictionnaire encyclopédique, p. 1761, librairie Larousse, ed. 1980

1)- Ageron (ch r), l'Echec d'une nouvelle France, n :Ob : dossier 9 1992

2)-Aron (r) : les Origines de la Guerre d'Algérie fayard. Paris 1962

3)- Balta(p) : 23 Siècle de Rebellions non à l'Envahisseur n Ob, op cit,92 .

4)- Berque (j) : 120 ans de sociologie maghrébine ; annales, sept 1956 .

5)- Enfantin(b-p) : la colonisation de l'Algérie, paris 1843

6)- eveno (p) : la trace coloniale n .ob. op cit92.

7)- hamoumou : aux harki la indigne n.ob92 op.cit92

8)-Jeanson(f) : l'Algérie hors la loi, seuil, paris 1955 .

9)-Karnow(s) : la Déchirure et l'enlissement n.ob.92 op.cit

10)- Lachraf (m) : le patriotisme rural en Algérie esprit, mars 1955 .

11)- Rousse(h) : le syndrome de vichy, seuil, paris 1987

12)- Tocqueville(a) : de la Colonie en Algérie ed complexe paris, 1988.

13)- Vidal(p) : Ainsi s'Enchaînent les crimes n. ob 92 op. cit .

14) - ولد خليفة (محمد العربي): الجزائر المفكرة و التاريخية. دار الأمة الجزائر
1998.